﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأعراف: 34]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

آجـالُ الأُمـمِ مَرهونةٌ بظُهورِ الفواحشِ فيهم

لَمَّا بيَّن اللّٰهُ تعالى في الآية السَّابقةِ الحَلَالَ والحَرامَ وأحوالَ التَّكاليفِ، بَيَّن في هذه الآية أنَّ لِكُلِّ أمَّةٍ مُدَّةً وأجلًا[1]؛ للتَّحذير من هلاك المجتمعِ ممَّا يُصيبُه من داءِ الفواحشِ والشِّركِ باللّٰه تعالى، وفي السِّياق السَّابقِ نَعى اللّٰهُ عَلى المُشركينَ إعراضَهم عنِ الحقِّ، وانغماسَهم في الباطل، وعُتُوَّهم في الكفر بَعدَ أن دُعوا إلى الإيمانِ، فكانَ حالُهم حالَ مَن لا يُقلِعُ عَمّا هوَ فِيهِ؛ لذا أعقَبَ ذَلِكَ بإنذارِهم ووَعيدِهم إقامَةً لِلحُجَّةِ عليهم وإعذارًا لَهم قَبلَ حُلولِ العَذابِ بِهِم[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُمَّةٍ﴾: من أَمَّ المكان: قَصَده. وأُمُّ الشَّيء: أَصلُه. والأُمُّ: الوالدة. وأُمُّ الكِتاب: اللَّوح المحفوظ، ويُطلَق أيضًا على سورة الفاتحة. والأُمَّة: الجماعة، أو القَرْن، والجِيل، وكلُّ جماعةٍ يجمعُهم أمرٌ ما، إمَّا دينٌ واحدٌ، وإمَّا زمانٌ واحدٌ، وإمَّا مكانٌ واحدٌ، سواء كان ذلك الأمرُ الجامعُ تسخيرًا أو اختيارًا، وجَمْعُها: أمم. وقد وردَت كلمةُ (الأُمَّة) في البيانِ القرآنيِّ على خمسَةِ معانٍ؛ هي: الجماعة منَ النّاسِ، والمِلَّةُ والسُّنَّةُ والدِّينُ، والرَّجُلُ الصّالحُ الّذي يؤتَمُّ به، والزَّمانُ، والصِّنفُ[3].

(1) ابن عادل، اللُّباب: 9/99.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 8/102.

(3) ابن الأنباريّ، الزّاهر في معاني كلمات النَّاس: 2/255، والرّاغب، المفردات، والفَيُّوميّ، المصباح المُنير، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أمّ)، ويُنظر: ابن الجوزيّ، وهو الّذي عدّها خمسةً فزاد: (الصنف)، في نزهة الأعين النّواظر، ص: 143 - 144.

ومعنى ﴿أُمَّةٍ﴾ في الآية: الجماعة منَ النّاسِ اجتمعوا على الكفرِ.

2) ﴿أَجَلُهُمْ﴾: من أَجَلَ، وهو غَايَةُ الوَقتِ في مَحَلِّ الدَّينِ وَغَيرِهِ، والأَجَل: المدَّةُ المضروبةُ، ويُقال للمُدَّة المُحَدَّدة لِعُمر الإنسانِ، وهو الوَقتُ المُوَقَّتُ المَضرُوبُ لانقضاءِ المُهلَةِ، وأَجَلُ الشّيءِ: مُدَّتُه ووقتُه الّذي يَحلُّ فيه. وَقولُهُمْ " أَجَلْ " في الجَوَابِ، هُوَ مِن هَذَا البَابِ، كَأَنَّهُ يُريدُ انتَهَى وبَلَغَ الغَايَةَ[1]. والمرادُ هنا: وَقتُ حلولِ الهلاكِ ونزولِ المَثُلاتِ على المشركين.

3) ﴿يَسْتَأْخِرُونَ﴾: من أَخَرَ، ويدلُّ أصلُ الكلمةِ على نقيضِ التَّقَدُّمِ. والمعنى المحوريّ تَخَلُّفُ الشَّيءِ (في المكان أو الزّمان) عن مُقارنه: كخَشَبَةِ الرَّحلِ النّاتئةِ في مُؤَخَّرَتِهِ، وكَخِلْفَيِ النّاقة ومُؤْخِرِ العين ومُؤَخَّرِ الرّأس[2]. والأُخُرُ ضِدُّ القُدُمِ[3]. والمرادُ هنا: لا يُتركُونَ بَعدَ الأجَلِ شَيئًا قَليلًا مِنَ الزَّمانِ.

4) ﴿يَسْتَقْدِمُونَ﴾: من قَدَمَ، أَصلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلَى سَبقٍ وَرَعف، ثُمَّ يُفَرَّعُ مِنهُ ما يُقارِبُهُ: يَقُولُونَ: القِدَمُ: خِلَافُ الحُدُوثِ، وَأَصلُهُ قَولُهُمْ: مَضَى فُلَانٌ قُدُمًا: لَمْ يُعَرِّجْ وَلَمْ يَنْثَنِ. والمعنى المحوريّ للمادَّة: سَبقُ الشَّيءِ نافذًا إلى الأمام بِقُوَّةٍ أو حِدَّةٍ[4]. والمعنى المرادُ نَفيُ إهلاكِ الأُمَمِ قَبلَ مَوعدِ أَجَلِها المضروبِ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

نِهايةُ أعمارِ الأُممِ نهايةٌ حَتميَّةٌ وزوالٌ أكيدٌ

أخبَرَ تعالى أنَّ لكلِّ أمَّةٍ مُكَذِّبةٍ، مُصِرَّةٍ على الكُفر، وقتًا مُحَدَّدًا لحُلولِ العُقوبةِ عليهم، ونزولِ المَثُلات بهم على شِركِهم، فإذا جاءَ الوقتُ المُعَيَّنُ لإهلاكِهم هَلَكوا، لا يتأخَّرونَ عنه أَقَلَّ وقتٍ، ولا يتقدَّمون، وفي هذا تهديدٌ لِمشركي مَكَّةَ ووعيدٌ لَهُم[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والفيّوميّ، المصباح المُنير، والسَّمين الحلبيّ، عمدة الحفَّاظ: (أجل).
(2) جَبَل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أخر).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (أخر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قدم).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 12/391.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

مَوقعُ هذه الآيةِ منَ السّابقِ واللّاحقِ:

الآجـالُ مكتوبةٌ والنِّهاياتُ قريبةٌ

موقعُ هذه الآيةِ يحتملُ وجهين: فإمَّا أن تكونَ استئنافيّةً؛ للدّلالة على أنّ الآجالَ مكتوبةٌ، والأعمارَ محسوبةٌ؛ لئلّا يغترَّ الإنسانُ بحياته الدُّنيا الفانية[1].

وإمَّا أن تكونَ اعتراضيّةً بَينَ جُملَةِ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ﴾ [الأعراف: 31] وبَينَ جُملَةِ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ [الأعراف: 35]؛ للتَّنبيه على أنَّ المخاطَبين لهم آجالٌ محتومةٌ، فعليهم أن يَعمَلُوا بأخْذِ الزِّينةِ واتِّباعِ الرُّسُلِ.

دَلالةُ العُمومِ الصّريحِ:

تَـرسـيـخُ مَفهومِ السُّنَّةِ الاجتماعيَّةِ في اجْتِماعِ الأُممِ وانْدثارِها

يتضمّنُ قولُه تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ﴾ وعيدًا وتهديدًا للمشركين من أهلِ مكّةَ بإخبارهم أنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ كافرةٍ مُعاندةٍ لرسولها، ومخالفةٍ لأمرِ رَبِّها، أجَلًا مُؤَقَّتًا لِمَجيءِ العَذابِ، وهذا ما أشارَ إليه التّنكيرُ بدلالته على العمومِ الصَّريحِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ﴾.

وفي الجملة إشارةٌ إلى الخصوصِ الضِّمنيِّ، بيان ذلك أنَّ في العموم بشارةً بانتهاء صَوْلةِ المشركين، وانكسارِ شوكتِهم، وبأفولِ زمانِهم، وشروقِ شمسِ الإسلامِ، وارتفاعِ رايةِ التّوحيدِ، فما وقعَ للأممِ السَّابقةِ سيكون لهم.

نُكتةُ تَقديمِ الجارِّ والمجرورِ على عاملِه:

سُنَّةُ اللهِ تعالى في إهلاكِ الأُممِ المُكَذِّبةِ

في قولِه تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ﴾ تَقدَّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿وَلِكُلِّ﴾ على المبتدأ ﴿أَجَلٞۖ﴾؛ لتأكيد العمومِ المستفادِ من لفظِ (كُلّ)، ومن تنكيرِ ﴿أُمَّةٍ﴾ و﴿أَجَلٞۖ﴾؛ أي: تأكيد أنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ مِنَ الأممِ المُكَذِّبةِ في أيِّ زمانٍ منَ الأزمانِ وقتًا مُعَيَّنًا مَحدُودًا يَنزِلُ فِيهِ عَذابُهم مِنَ اللّه، أو يُميتُهم فيه.

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/344.

سِرُّ التَّعبيرِ بِأُمَّةٍ:

هناك مترادفاتٌ كثيرةٌ تدلُّ على الفِرقةِ أو الجماعةِ منها: قَرْن، وقرية، لكن أُوثرَ التَّعبيرُ في قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ بلفظِ ﴿أُمَّةٍ﴾؛ لأنَّ المُرادَ بالأُمَّةِ الجَماعَةُ الَّتي اشتَرَكَت في عَقيدَةِ الإشراكِ أو في تَكذِيبِ الرُّسُلِ[1]، فهم جماعةٌ يجمعُهم الكفرُ باللّه تعالى، وبرزَت فيه عواملُ الاجتماعِ، من دينٍ واحدٍ، وزمانٍ واحدٍ، ومكانٍ واحدٍ، ففي هذه الجماعةِ معنى الاجتماعِ على قيادةٍ واحدةٍ، وهو مأخوذٌ منَ الأصلِ اللُّغويِّ، إذِ الإمامُ هو القائدُ لمَن تَبِعَه، ففي لفظ الأمّةِ معنى اجتماعِ النَّاسِ على قيادةٍ واحدةٍ والرّضا بها، ففي الآية إيماءٌ في تهديد كلِّ مَن رضي بإمامة الكفرِ وتابع على ذلك.

كـلُّ مَـن رضيَ بإمـامـةِ الكُـفرِ فـهـو داخـلٌ في التَّهديدِ

وأيضًا لم يَقُل: (ولكلِّ إنسان أجلٌ)، مع أنّه لكلِّ إنسانٍ أجلٌ فعلًا، فلماذا اختارَ ﷻ ذكرَ أجلِ الأمَّةِ، تلك حكمةُ اللّهِ تعالى فيما يختارُ من بيانٍ في الذِّكرِ الحكيمِ، ونتلمَّسُ الحكمةَ في ذلك، فنقول: إنَّه ﷻ ذكرَ الأمَّةَ، دون آحادها، أوّلًا: لأنّه إذا كان للأمَّة بآحادها وجماعاتها أجلٌ، فأولى أن يكون للآحاد آجالُها، ثانيًا: لأنّ الأمّةَ هي الجماعةُ الّتي يجمعُها عصرٌ وعاداتٌ وتقاليدُ، ويكون فيها توجيهٌ إلى الخير أو إلى الشّرّ، فهي جيلٌ له أحوالُه، وعليه تَبِعاتُه، فاللّهُ ﷻ أخبرَنا أنَّ لكلِّ جيلٍ منَ الأجيال أَجَلَهُ الّذي ينتهي عندَه، ويذهبُ بأثقالِه، ويجيءُ من بعده جيلٌ آخرُ له شأنُه[2].

نُكتةُ الإيجازِ بِحَذْفِ الصِّفَةِ:

قولُه تعالى: ﴿أُمَّةٍ﴾ موصوفٌ حُذِفَت صفتُه، والتّقدير: (أمَّةٍ مُعانِدَةٍ مُكَذِّبَةٍ). وهذا إيجازٌ بالحذف، والمعنى: لِكُلِّ أُمَّةٍ مُكَذِّبَةٍ إمهالٌ[3].

تفخيمُ النّكرةِ وتعظيمُ شأنِها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/104.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2825.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/103.

وبَيَّنَ ابنُ جِنِّي عِلَّةَ حَذفِ الموصوفِ أكثرَ منَ الصِّفةِ بقوله: "يقعُ حذفُ الموصوفِ أكثرَ من صفتِهِ؛ لأنَّ الصِّفةَ تأتي لإيضاحِ الموصوفِ وبيانِهِ، ولَمَّا كانتِ الصّفةُ مُختصّةً بالإيضاحِ والبيانِ كَثُرَ قيامُها مقامَ الموصوفِ، بخلافِ الموصوفِ، فإنّه يكثرُ إبهامُه من غير ذِكرِ الصِّفَةِ؛ لذا كان قيامُه مقامَ الصّفةِ قليلًا، ويشترطُ لحذفِ الصّفةِ أن تدلَّ الحالُ عليها"[1].

وفي حذفِ الصّفةِ إشارةٌ إلى تهويلِها وتفخيمِها، وأكثرُ ما يردُ الحذفُ للتّفخيم والتّعظيم في النَّكِراتِ، وكأنّ التّنكيرَ حينئذٍ عَلَمٌ عليه، ويستشهدُ بآياتٍ كثيرةٍ منها قوله تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: 105]؛ أي: وزنًا نافعًا، وقوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ [قريش: 4]؛ أي: من جوعٍ شديدٍ وخوفٍ عظيمٍ[2].

بَراعةُ الاسْتِعارةِ المَكْنيَّةِ:

في قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ استعارةٌ مكنيَّةٌ؛ حيث شُبِّهتِ الأُمَمُ بِبَشرٍ لَهُم حياةٌ وأَجَلٌ ينتهي، وحذَفَ المُشبَّهَ به وذكرَ لازِمًا من لوازِمِه وهو الأجلُ، وفيها تصويرٌ للمعنى المعنويّ في صورةٍ محسوسةٍ مُشاهَدةٍ.

تَصويرُ المَعنويِّ في صُورةٍ مَحسوسةٍ مُشاهَدةٍ

سِرُّ التَّعْبيرِ بلفْظِ (الأجل):

لم يُعبِّرِ النَّظمُ القرآنيُّ بلفظ (عذاب) أو (إهلاك) أو (كتاب)؛ لتثبيتِ الرّسولِ ﷺ وطمأنتِهِ بأنَّ تَأخيرَ العَذابِ عَن مُكذِّبيه، إنَّما هو جَريٌ على سُنَّةِ اللهِ تعالى في إمهالِ الظّالِمينَ[3]، ولإعلامِ الخلقِ أنَّ نزولَ العذابِ عامٌّ في الجميعِ إن جَرَوا على ما جرى عليه المُتقدِّمون.

سـنَّـةُ الـلـهِ لا تتخلَّفُ وعذابُه لا يَتخفَّفُ

(1) ابن جنّي، الخصائص: 1/82.
(2) الزّركشّي، البرُهان: 3/176.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/103.

سِرُّ إيثارِ التَّعْبيرِ بالمجيءِ:

مناسبةُ ما أُسنِدَ إلى المجيءِ مِن عذابٍ وهلاكٍ

أُوثِرَ التَّعبيرُ بـ﴿جَآءَ﴾ على (أتى) في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾؛ إذِ المجيءُ أعمُّ، لأنَّ الإتيانَ مجيءٌ بسهولةٍ، والمجيءُ صَعبٌ، فهو مجيءُ عذابٍ، وبَأسٍ، وشِدَّةٍ، ومَوتٍ، والأَجَل مِن ذلك[1].

معنَى الفاءِ:

للفاءِ معانٍ كثيرةٌ، منها: الفاءُ الاستئنافيّةُ، كما وقعَت هنا في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾؛ وذلك للدّلالة على نهوضِ تلك الجملةِ بمعناها.

سِرُّ إيثارِ (إذا):

أُوثِرَ التَّعبيرُ بـ (إذا) دون (إنْ) في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾؛ للدّلالةِ على تحقّقِ انقضاءِ أجلِهم؛ لأنَّ (إذا) تدلُّ على تحقّقِ وقوعِ الشّرطِ بخلاف (إنْ).

بَلاغةُ الاسْتِعارةِ في إسْنادِ المجيءِ إلى الأَجَل:

تصويرُ المعاني بصُورةٍ حِسّيَّةٍ

في إسنادِ المجيءِ إلى الأجلِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ استعارةٌ مكنيَّةٌ؛ حيث شُبِّه الأجلُ بشخصٍ غائبٍ يُتَرَقَّب وصولُه، وقد حَضَر، وبلاغةُ هذه الاستعارة أنّها صَوَّرتِ المعنى المعنويَّ في صورةٍ حَرَكِيَّةٍ حِسِّيَّةٍ مُشاهَدةٍ ماثلةٍ أمامَ الأعين.

عِلَّةُ إظْهارِ الأجلِ دونَ إضمارِه:

التَّنبيهُ على اختلافِ معنَى الأجلِ في المَوضِعَين

عُدِل عنِ الإضمارِ إلى الإظهارِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾، حيث كان مقتضى الظّاهرِ أن يُقال: ولكُلِّ أُمَّة أَجَلٌ فإذا جاءَ لا يستأخرون؛ وذلك لاختلافِ الأجلِ في المَوضِعين، فالمقصودُ منَ الأجَلِ الأَوّلِ مُدَّةُ العُمر كاملةً بتمامها مِن أوَّلها إلى

(1) الرّاغب، المفردات: (جاء)، ومحمود موسى حمدان، الإتيان والمجيء فِقْه دلالتهما واستعمالهما في القرآن الكريم، ص: 66.

آخرها، والمقصودُ منَ الأجلِ الثّاني الجزءُ الأخيرُ من مُدَّةِ الأجل[1]، ولزيادةِ تقريرِ الحُكم، ولتكونَ هذه الجملةُ مُستقلَّةً بنفسِها، غيرَ مُتوقِّفةٍ عَلى سماعِ غيرِها؛ لأنَّها بحيثُ تَجري مَجرَى المَثَل[2].

غَرَضُ إضافةِ الأجلِ إلى ضَميرِ الأُمَّةِ:

شُمولُ جميعِ الأُمَمِ بدون استثناءٍ، ومجيءُ الأجلِ كِنايةٌ عن تمامِه

إنْ جُعِلَ المرادُ بالضَّمير في قولِه تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ جميعَ الأُمَمِ المُشار إليها، فالغرضُ هو إفادةُ المعنى المَقصُودِ الَّذي هو بُلُوغُ كُلِّ أُمَّةٍ أجَلَها الخاصَّ بها ومَجيئُه إيّاها، بواسِطَةِ اكتِسابِ الأجَلِ، وقد دَلَّتِ الإضافَةُ على الشّمولِ والجمعِ، وكأنَّه قيل: إذا جاءَتهم آجالُهم بأن يَجيءَ كلَّ واحِدَةٍ من تِلكَ الأُمَمِ أجلُها الخاصُّ بها.

وإنْ جُعِلَ لِكُلِّ أُمَّةٍ خاصَّةً كما هو الظّاهِرُ، فالإظهارُ في مَوقِعِ الإضمارِ؛ لِزيادَةِ التَّقريرِ، والإضافَةُ إلى الضَّمير لإفادَةِ أكمَلِ التَّمييزِ؛ أي: إذا جاءَها أجلُها الخاصُّ بها[3].

وليس المرادُ بالأجل هنا العُمر؛ وإلَّا لقالَ: (لكلِّ واحدٍ)، بل المقصودُ هنا أجَلُ العذابِ والهلاكِ أو الاستئصالِ؛ إذ أمهلَ اللّهُ تعالى كُلَّ أُمَّةٍ كَذَّبت رسولَها إلى وقتٍ مُعَيَّنٍ، حتَّى إذا جاءَ ذلك الوقتُ حاقَ بهم العذابُ؛ لذا كانتِ الآيةُ الكريمةُ وعيدًا لأهلِ مَكَّةَ، وإنذارًا، وتهديدًا، ومجيءُ الأجلِ هنا كِنايةٌ عن تمامِه.

تَوجيهُ قراءةِ الحسَنِ بالجمْعِ:

قراءةُ الجمْعِ باعتِبارِ أعمارِ أفرادِ جميعِ الأُمَمِ

قَرَأَ الحَسَنُ: (فَإذا جاءَ آجالُهُمْ) بالجَمعِ، وتوجيهها: أنَّ لِكُلِّ إنسانٍ أجَلًا، كما قالَ اللّهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾ [الأنعام: 2]، إذ كتبَ اللّهُ مدّةَ بقاءِ عمومِ البشرِ في هذه الحياةِ الدّنيا، وأمَّا الإفرادُ فلِأنَّه اسمُ جِنسٍ، والجِنسيّةُ من قبيل

(1) الجَمَل، الفتوحات الإلهيَّة: 2/136.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/105.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/225.

المصدرِ، أو لِتَقارُبِ أعمارِ أهلِ كُلِّ قَرنٍ[1]، وحَسَّنَ تلك القراءة إضافَتُه إلى الجَماعَة[2].

دَلالةُ صِيغةِ الاستِفعالِ:

السِّين والتَّاء إمَّا للطَّلَب، وإمَّا للتَّأكيدِ بحسبِ المعنَى

أشعرَ التَّعبيرُ بصيغة الاستِفعالِ في الألفاظِ: ﴿يَسْتَأْخِرُونَ﴾ و﴿يَسْتَقْدِمُونَ﴾ بعَجزِ الأمَّةِ الّتي حانَ موعدُ عذابِها، واستئصالِها عن تأخيرِ مُدَّتِها، أو تقديمِها، وحِرْمانِهم عَن ذلك على الرَّغم مِن طَلَبِهم لَه، وسعيهم إليه، وبذلِهم أقصى الطَّاقةِ في تحقيقِه[3]، وهذا المعنى على اعتبار السِّينِ والتَّاءِ للطَّلب.

أو المعنى على النَّفْي؛ أي: كِناية عن عدم طَلَبِ التَّأخُّرِ ولا استطاعة تغييرِه[4]، وتكون السّينُ والتّاءُ للتّأكيد.

بَديعُ فنِّ الطِّباقِ:

تأكيدُ معنَى وقتِ حُلولِ العُقوبةِ بالأُممِ المُكَذِّبةِ

بين الفعلين: ﴿يَسْتَأْخِرُونَ﴾ و﴿يَسْتَقْدِمُونَ﴾ طباقُ سلبٍ، إذ جمعَ السّياقُ بين فعلين مُتضادَّين في المعنى، وهما استئخارُ الأجلِ واستقدامُه، وهو وصفٌ لحالِ المشركين وقتَ حلولِ العقوبةِ بهم، فإذا جاءَ الوقتُ الّذي وقَّته اللّهُ لإهلاكِهم، لا يتأخَّرون عنه لحظةً، ولا يتقدَّمون عليه، فأَكَّدَ هذا الأسلوبُ البلاغيُّ المعنى.

سِرُّ التَّعْبيرِ بساعةٍ عن أقلِّ الوقتِ:

تُطلَقُ السَّاعةُ في عُرْفِ العربِ على أقَلِّ وَقتٍ

خُصَّتِ السَّاعةُ بالذِّكرِ في قولِه: ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾؛ لأنَّها أَقَلُّ أسماءِ الأوقاتِ في استعمالِ العربِ، يعني لا اسم في عُرْفِهم لأقلِّ وقتٍ إلَّا السَّاعة؛ لذا ذَكَرها وخَصَّها؛ والمعنى: لا يَتَقَدَّمون ولا يتأخّرون أقصرَ وقتٍ[5].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/45.
(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 4/166.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/225.
(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 3/376.
(5) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 3/376.

ولسببٍ إشاريٍّ وهو أنَّ ذكرَ السَّاعةِ فيه تذكيرٌ بعذابِ السَّاعةِ، فكما أنَّ عذابَ الدُّنيا لا يتأخَّر، فكذلك إذا جاءَتِ السَّاعةُ لا يتأخَّرُ عذابُها.

فائِدةُ عَطْفِ الجُمَلِ:

تـأخُّـرُ الأَجَـلِ مُساوٍ لِتَقَدُّمِهِ في الاسْتِحالَةِ

عُطِفَ الاستقدامُ المنفيُّ على طلب التَّأخُّرِ المنّفي في قولِهِ تعالى: ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾؛ "لِلمُبالَغَةِ في انتفاءِ التَّأخُّرِ، يَعنِي أنَّ التَّأخُّرَ مُساوٍ لِلتَّقَدُّمِ في الاستِحالَةِ؛ ولذا نَظَمَهُ مَعَهُ في سِلكٍ، كما في قَولِهِ سُبحانَه: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النّساء: 18]، فَإنَّ مَن ماتَ كافِرًا مَعَ ظُهُورِ أن لا تَوبَةَ لَهُ رَأسًا، قَد نُظِمَ في عَدَمِ القَبُولِ في سِلكِ مَن سَوَّفَها إلى حُضورِ المَوتِ؛ إيذانًا بِتَساوِي وُجُودِ التَّوبَةِ حِينَئِذٍ وعَدَمِها بِالمَرَّةِ"[1].

وقُدِّمَ في هذا الموضع انتفاءُ الاستئخارِ؛ لأنَّ الغرضَ بَيانُ عَدمِ خَلاصِ الأمَّةِ المُكَذِّبةِ رسولَها ونجاتِها مِنَ العَذابِ، وجاء عكسُ ذلك في قَولِهِ تَعالى: ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ۝٥﴾ [الحِجر: 5]؛ لأنَّ المقصودَ هناك بَيانُ سِرِّ تَأخيرِ إهلاكِهِم مَعَ استِحقاقِهِم لَهُ، حَسبَما يُنبِئُ عَنه قَولُه تَعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾ [الحِجر: 3] فالأهَمُّ بَيانُ انتفاءِ السَّبقِ[2].

تَوجِيهُ المُتَشابِهِ اللَّفظِيِّ:

قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: 34]، وقال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۝٦١﴾ [النّحل: 61]، وقال: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ

(1) القاسميّ، محاسن التَّأويل: 7/2676.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/2676.

لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يونس: 49].

اتَّفقتِ الآياتُ في إخبارِها عن موضوعٍ واحدٍ، وهو عدمُ الإمهالِ أو الاستعجالِ عند حلولِ الأَجَلِ، ومِمَّا يُلحَظُ فيها اقترانُ (إذا) بالفاء في آيتي الأعراف والنَّحل، وعدمُ اقترانِها في آية يونس؛ وذلك لأنَّ ما في سورةِ الأعرافِ، وكذلك ما في سُورةِ النَّحلِ من باب عَطفِ جُملةٍ على جملةٍ أُخرى مُصدَّرةٍ بالواوِ بينهما اتِّصالٌ وتَعقيبٌ، فبدأَت آيةُ الأعرافِ بالواو في قولِه تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾، واستهلَّت آيةُ النّحلِ بالواو في قولِه: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [النَّحل: 61]، فكان الموضعُ - في الآيَتَيْن - موضعَ الفاء، فحسُنَ الإتيانُ بالفاءِ الدَّالّةِ على التّعقيبِ، كما أنّه استُغنِيَ بفاءِ تَفريعِ عامِلِ الظَّرفِ هُنا عَنِ الإتيانِ بالفاءِ في جَوابِ (إذا)؛ لِظُهُورِ مَعنى الرَّبطِ والتَّعليقِ بِمَجموعِ الظَّرفِيَّةِ والتَّفريعِ، بخلافِ ما في جاءَ سورة يُونُسَ الّتي أمرَ اللّهُ تعالى الرّسولَ أن يقولَ للمشركين فيها: لا أستطيعُ أن أدفعَ عن نفسي ضرًّا، ولا أجلبَ لها نفعًا، إلّا ما شاءَ اللّهُ أن يدفعَ عنِّي مِن ضرٍّ أو يجلبَ لي من نفعٍ. لكلِّ قومٍ وقتٌ لانقضاءِ مدّتِهم في هذه الحياةِ، ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يونس: 49]؛ فإنَّ (إذا) في هَذِهِ الآيَةِ مُشْرَبَةٌ مَعنى الشَّرطِ، فَلِذَلِكَ اقتَرَنَتْ جُملَةُ عامِلِها بِالفاءِ الرّابِطَةِ لِلجَوابِ مُعامَلَةً لِلفِعلِ العامِلِ في (إذا) مُعامَلَةَ جَوابِ الشَّرطِ[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المجيءُ والإتْيانُ:

الإتيان: مجيءٌ بسهولةٍ، ومنه قيل للسّيلِ المارِّ على وجهِهِ: أَتِيّ وأَتَاوِيّ[2]، وبه شبّهَ الغريبُ فقيل: أتاويٌّ، ويُقال الإتيان للمجيء بالذّاتِ وبالأمرِ وبالتّدبيرِ، ويُقال في الخيرِ والشَّرِّ، وفي الأعيانِ والأعراضِ، نحو قولِه تعالى: ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ

(1) الكرمانيّ، أسرار التّكرار، ص: 119، والأنصاريّ، فتح الرّحمن: 1/191 - 192، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/105، 11/191.
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (أتى).

ٱلسَّاعَةُ﴾ [الأنعام: 40]، وقوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النّحل: 1]، وقوله: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ﴾ [النّحل: 26]، أي: بالأمر والتّدبير[1].

الإتيانُ مجيءٌ بسهولةٍ، بخلاف المجيءِ فيُلحظُ فيه الصّعوبة

المجيء: تَدُلُّ المادَّةُ على معاني الصُّعوبةِ والغلبةِ والإلجاءِ، والحَبسِ، وعَدَمِ إدراكِ الغايةِ[2]. ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ٢٣﴾ [مريم: 23].

والفرقُ بينهما أنَّ الإتيانَ مجيءٌ بسهولةٍ، بخلاف المجيءِ فإنَّه مجيءٌ بِصُعوبةٍ، وبينهما عمومٌ مِن حيث دلالتُهما على مُطلَقِ الحركةِ، والانتقالِ دون التَّقيُّدِ بسهولةٍ أو غيرها[3].

(1) الرّاغب، المفردات: (أتى).
(2) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (جاء).
(3) محمود موسى حمدان، الإتيان والمجيء فقه دلالتهما واستعمالهما في القرآن الكريم، ص: 14.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث عشر، سورة الأعراف من الآية 14 إلى الآية 87
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة الأعراف من الآية 14 إلى الآية 87 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 13 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-09-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 13 : سورة الأعراف من الآية 14 إلى الآية 87.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-09-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6551762 بتاريخ 2023/12/20م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»